

تفسير سورة النصر

التسبيح والتحميد والاستغفار عند الفتوحات

يتميز الإسلام الحنيف، بالربط بين الدنيا والآخرة، وبين الله وعبده، وبين النصر والعزة والفتوح، واللجوء إلى الله قبل وعقب ذلك، حتى لا يترك الإنسان وأهواءه وشهوته، ويظل معتدل المزاج لا يبطر ولا يغتر ولا يفجر، وهذا ما نجده واضحاً من توجيه الله تعالى نبيه وأمره له بعد الفتوح التي فتحت عليه، مكة وغيرها، بأن يسبح ربه ويحمده ويستغفره، في سورة النصر المدنية إجماعاً، حيث سئل ابن عباس عن مدلولها، فقال: هو أجل رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم، أعلمه الله تعالى بقربه إذا رأى هذه الأشياء، فقال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما ذكرت «1». وهذا الاتجاه الذي ذكر ابن عباس في تفسير هذه السورة هو ما ذكره ابن مسعود وأصحابه، وقتادة،

والضحاك. و

روت معناه عائشة رضي الله عنها عن النبي صَلَّى الله عليه وسلّم، وأنه صَلَّى الله عليه وسلّم لما فتحت مكة، وأسلم العرب، جعل يكثر أن يقول: «سبحان الله وبحمده، اللهم إني أستغفرك» يتأول القرآن في هذه السورة «2». وقال لها مرة: «ما أراه إلا حضور أجلي».

هذه السورة هي سورة النصر:

(1) أخرجه سعيد بن منصور، وابن سعد، والبخاري، وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) أخرجه عبد الرزاق وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها.

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)

[سورة النصر (110): الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)

«1» «2» «3» «4» [النصر: 110 / 1 - 3].

هذه السورة بشارة بالنصر للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العرب قاطبة، ونعي أجله والاستعداد للانتقال إلى الرفيق الأعلى بمداومة التسبيح والتحميد والاستغفار.

إذا تحقق لك أيها النبي نصر الله، وعونه، وتأييده على من عاداك، وهم قريش وبقية العرب، وفتحت لك مكة، وتحققت لك الغلبة، وإظهار دينك وانتشاره، فزه الله تعالى، حامدا له نعمه وأفضاله عليك، واسأل المغفرة لك ولمن اتبعك، إن الله كثير القبول لتوبة عباده، حتى لا يياسوا ويرجعوا بعد الخطأ.

و(النصر) الذي رآه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هو غلبته لقريش وهوازن وغير ذلك. و(الفتح) هو فتح مكة والطائف ومدن الحجاز وكثير من اليمن. قال ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب: لم يمت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي العرب برجل كافر، بل دخل الكل في الإسلام، بعد حنين والطائف، منهم من قدم، ومنهم من قدم وافده، ثم كان بعده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الردة ما كان، ورجعوا كلهم إلى الدين «5». والمراد بذلك: العرب وعبدة الأوثان.

وفائدة قوله: (نصر الله) (مع أن النصر لا يكون إلا من عند الله: هو أنه نصر لا يليق إلا بالله، ولا يليق أن يفعله إلا الله، أو لا يليق إلا بحكمته، والمراد: تعظيم هذا النصر.

وقوله: جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ: مجاز، أي وقع نصر الله.

أخرج الإمام أحمد والبيهقي والنسائي عن ابن عباس قال: لما نزلت: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَيْتَ إِلَيَّ نَفْسِي». فإنه مقبوض في تلك السنة.

(1) عونہ علی تحقیق المطلوب. [.....]

(2) تحصيل المطلوب بفتح البلاد في مكة وغيرها.

(3) جماعات كثيفة.

(4) نزه الله تعالى وقده، حامدا على نعمه، طالبا المغفرة لك ولأتباعك.

(5) انظر: باب أبي خراش الهذلي.

قال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمبى في حجة الوداع، ثم نزلت: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ .. فعاش بعدها ثمانين يوما، ثم نزلت آية الكلاله فعاش بعدها خمسين يوما، ثم نزلت: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوما، ثم نزلت: وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ فعاش بعدها واحدا وعشرين يوما.

وكان من علامة ذلك: أنك أيها النبي تبصر الناس من العرب وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به، جماعات، فوجا بعد فوج، بعد أن كانوا في بادئ الأمر، يدخلون واحدا واحدا، واثنين، فصلت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام. وتحقق ذلك في العام التاسع والعاشر عام الوفود حيث تابعت الوفود العربية إلى المدينة معلنة إسلامها. قال

ابن إسحاق: لما افتتح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، وفُوغ من تبوك، وأسلمت
ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وإنما كانت العرب تترصد
بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، إذ كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت والحرم،
وصريح ولد إسماعيل عليه السلام، وقادة العرب. فلما افتتحت مكة ودانت له قريش
ودوخها الإسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
ولا عداوته، فدخلوا في دين الله أفواجا، كما قال تعالى: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ... السورة.
لقد جاء الأمر الإلهي للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتسبيح بعد تحقيق الانتصارات
العسكرية وانتشار الإسلام. والمعنى: إذا فتحت مكة وانتشر الإسلام، فاشكر الله على
نعمه، بالصلاة له، وبتزيهه عن كل ما لا يليق به، وعن أن يخلف وعده الذي وعدك
به بالنصر. واقرن الحمد بالتسبيح، أي اجمع بينهما، فإن ذلك النصر والظفر يقتضي
الحمد لله على عظيم منته وفضله.

واطلب أيضا من الله المغفرة لك، تواضعا لله، واستقصارا لعملك، وتعلينا لأمتك، وكذا
اسأله المغفرة لمن تبعك من المؤمنين على ما كان منهم من القلق والخوف لتأخر النصر،
فإن الله سبحانه من شأنه التوبة على المستغفرين له، يتوب عليهم ويرحمهم بقبول
توبتهم، وهو كثير القبول لتوبة عباده، حتى لا يياسوا ويرجعوا بعد الخطأ.